Diyala Journal
for Human Research
Website:
djhr.uodiyala.edu.iq

مجلة ديالى
للبحوث الإنسانية

p ISSN: ٢٦٦٣-٧٤٠٥
e ISSN: ٢٧٨٩-٦٨٣٨

مجلة ديالى للبحوث الانسانية
العدد (٩٨) المجلد (١) كانون الأول ٢٠٢٣

الوعي السردي بالقيم الاجتماعية في الرواية العراقية ٢٠٠٣-٢٠١٩

(دراسة في نماذج مختارة)

أ.د. يادكار لطيف جمشير
م. حسين مجيد حسين

جامعة صلاح الدين- أربيل/ كلية اللغات

Email:yadgar.jamsheer@su.edu.krd
hussien.hussein@su.edu.krd

Published:١-١٢-٢٠٢٣

Keywords: الوعي، السرد، الاجتماعي، القيم

Abstract

This study, titled "Narrative Awareness of Social Values in Iraqi Fiction (2003-2019): A Study of Selected Models," aims to examine the manifestations of the narrative awareness of Iraqi novelists regarding the impact of the country's events on the values governing social life. Iraqi novelists have, through their imaginative narratives, translated elements from the existing social reality into the realm of fiction without falling into simplistic documentation. This allows readers to engage with the imaginative narrative in the context of objective awareness of the subject matter

هذه مقالة وصول مفتوح بموجب ترخيص
CC BY 4.0
(http://creativecommons.org/licenses/by/4.0/)

الملخص
تروم هذه الدراسة الموسومة بـ: "الوعي السردي بالقيم الاجتماعية في الرواية العراقية ٢٠٠٣- ٢٠١٩ (دراسة في نماذج مختارة)" الوقوف على تجليات وعي المنجز الروائي العراقي بأثر الأحداث التي مرّ بها البلد في القيم التي تحكم الحياة الاجتماعية، إذ إن ما كتبه الروائي العراقي بوصفه سرداً متخيلاً قد سرّبه من الواقع الاجتماعي الموجود إلى الواقع المتخيل، دون أن يسقط في التسجيلية الساذجة، وبذلك وفّر للقارئ قراءة المتخيّل السردي في ضوء وعي الواقع الموضوعي.

المقدمة
بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد.
تحتفي الرواية المعاصرة بالوعي أكثر من احتفائها بمركزية الحدث، إذ غدا الوعي المحور الذي تسعى الرواية إلى تمديد الجسر من خلاله مع الواقع، لأن الرواية ترتبط ارتباطاً وثيقاً بحياة الإنسان المعاصر وهمومه وتطلعاته، وذلك تزامناً مع التطورات الكبيرة التي شهدها الوعي الإنساني تجاه ذاته وقضاياه وأبعاده الوجودية والاجتماعية، وكان للأحداث والتحولات التي شهدها العراق من الحروب والحصار ووقع البلد تحت سيطرة قوات الاحتلال وانتشار العنف وغياب الدولة ومؤسساتها أثر كبير في بنية المجتمع العراقي والقيم المتحكمة في العلاقات القائمة بين أفراده وجماعاته الاجتماعية.
تكمن أهمية الدراسة في الكشف عن تحولات الرواية العراقية نحو الإثراء والتجريب في مرحلة ما بعد التغيير، وتتجلى تلك التحولات في وعييها بالأحداث التي جرت وتجري في الساحة العراقية، والإحاطة بالحراك الاجتماعي نحو فهم دور الأحداث التي مر بها البلد في تغيير القيم الاجتماعية التي تحكم العلاقات الاجتماعية بين الأفراد والجماعات، إذ تكفّل السرد الروائي التعامل الواعي مع تغييرات الفضاء الاجتماعي العراقي، وجاء اختيار مادة الدراسة من الروايات الصادرة في مدة زمنية واسعة – نسبياً- من أجل إمكانية رصد التطور الحاصل في الوعي السردي تجاه التحولات القيمية التي شهدها البلد في المدة التي صُدرت فيها النماذج التي اعتمدتها الدراسة.
تنهض الدراسة على خطة متكونة من مدخل ومبحثين، يلقي المدخل الضوء على مفهوم سوسيولوجيا السرد الروائي، ويدرس المبحث الأول القيم المسيطرة على الحياة الاجتماعية في الريف، وذلك بوصف الريف بيئة اجتماعية تحكمها مجموعة قيم تفرضها الحياة الاجتماعية والفكرية هناك، في حين يدرس المبحث الثاني القيم المتحكمة في الحياة الاجتماعية في المدينة بوصفها بيئة اجتماعية كبيرة تتسم بالانفتاح والتغيير القيمي، وتقفو المبحثين خاتمةٌ تتضمن أهم النتائج التي توصلت إليها الدراسة.

مدخل: سوسيولوجيا السرد الروائي
تعد الرواية أكثر الأنواع الأدبية ارتباطاً بالواقع الاجتماعي، كونها ترصد مواقف الإنسان الاجتماعية، وسلوكيات تعامله مع المشاركين معه في بيئته، وكان المنظور الواقعي المسيطر على الساحة الأدبية في القرن التاسع عشر ينطلق من اعتبار الرواية مرآة تعكس واقع المجتمع، استناداً إلى النظرية المفسرة للفن بأنه تعبير عن الصراعات الاجتماعية[1]، فالرواية تمتلك مستلزمات التعبير عن المتغيرات الاجتماعية، وتنشد إقامة صلة قوية مع هذا الواقع، فهي مسكونة بالنزعة الواقعية المتمثلة في سلسلة من القناعات أو المواضعات التي حصل الاتفاق بشأنها في كيفية تمثيل العالم، ويتعذر

تصور وجود الرواية من غير وجود العالم الذي تمثله، فهي المجال الأمثل للتعبير عمّا يجري على المستوى الاجتماعي، فتشبه الرواية الخزانة التي تحفظ المزايا المجتمعية والإنثروبولوجية، ويمكن من خلالها "الإطلالة على العادات والتقاليد وأنماط العيش وفنون الطبخ والأزياء والملابس السائدة في كل عصر، إلى جانب تفاصيل الحياتية الأخرى الخاصة بالحب والزواج والرفقة والسفر"[٢].

تهدف سوسيولوجيا الرواية إلى التزاوج بين حقلين من النشاطات الإنسانية، هما علم الاجتماع والرواية، عبر تتبع المناخات الاجتماعية المؤثرة في النص الروائي، مستعينة في ذلك بالمناهج والمصطلحات والأدوات المأخوذة من علم الاجتماع والنقد الأدبي في آن واحد، سعياً منها لإزالة الفواصل بين الدراسات الإنسانية، بغية الوصول إلى تحليل أكثر عمقاً للنصوص السردية من حيث ارتباطها بالبنية الاجتماعية المنبثقة منها[٣]، وشهد هذا المجال النقدي الفعال تطورات عديدة على مستويات توزيع الاهتمام بين البعد الإيديولوجي والفني للنص السردي، وتجاوز نظرية الانعكاس نحو ربط الشكل الروائي بالمرحلة التاريخية التي يعيشها المجتمع الذي تمثله الرواية.

شهد الاتجاه السوسيولوجي في الرواية صيغة منهجية مع الناقد الهنغاري (جورج لوكاتش) الذي أقام دعائم سوسيولوجيا الرواية استناداً إلى نظريته القائلة بأن الرواية تعبير غير مباشر عن الصراعات القائمة في المجتمع، فهي تعبير عن معرفة ناتجة عن رؤية الواقع وتحليله، وليس انعكاساً سطحياً لمظاهر هذا الواقع[٤]، وقد انتقد (لوكاتش) الاتجاهين السائدين في النقد الروائي في عصره، الاتجاه الإيديولوجي المعروف بحصر اهتماماته على مضمون العمل الروائي وإهماله للأبعاد الفنية فيه، والاتجاه الشكلي القائل بالفصل بين الرواية والأدب عموماً وبين الواقع الخارجي المتمثل في السياقات الخارجية المنتجة لها، وسعى إلى قراءة تاريخ الرواية من خلال تحديده للمراحل الأساسية لتطورها على مستويي الشكل الفني والمضمون الإيديولوجي، فربط الشكل الفني لها بالمرحلة التي توصل إليها المجتمع المنتج لها في مسيرة تطوره التاريخي والاجتماعي، وعدّ التحليل الجمالي خطوة ضرورية للوصول إلى فهم التصور الذي يتبناه الروائي عن المجتمع[٥]، واستند (لوكاتش) في نظريته النقدية إلى أصول علم الجمال الهيجلي الذي رأى في الأشكال الفنية تجسيدات مختلفة للتعبير عن الحقيقة، ويظهر هذا على نحو واضح في رؤية هيجل للرواية باعتبارها ملحمة بورجوازية تجسد حياة هذه الطبقة بكل تناقضاتها وتعقيداتها[٦].

وتعد الجهود التي بذلها الناقد (لوسيان غولدمان) في مجال سوسيولوجيا الرواية مكمِلة للمسيرة التي بدأ بها (جورج لوكاتش)، وذلك من خلال منهجه البنيوية التكوينية القائمة على افتراض وجود رابط بين البنية الداخلية للنص الروائي والوعي الاجتماعي للفئة الاجتماعية التي تعبر عنها، وتم إرساء مبادئ البنيوية التكوينية على أساس التوفيق بين البنيوية والفكر الإيديولوجي الماركسي، ويتجلى ذلك في تسمية المنهج المكونة من جزأين، البنية والتكوين، وعلى هذا الأساس يرفض (غولدمان) التوجهات النقدية التي تركز على العوامل الخارجة عن النص، مثل سوسيولوجيا الكاتب وسيرته الذاتية، ويرى بأنها ليس بإمكانها تقديم أي شيء عن الأدب وحمولاته الإيديولوجية، وإنما يجب اعتماد نظرية معتدلة متوازنة تعتد بالإيديولوجيا والأبعاد الجمالية والفنية معاً في تحليل السرد الروائي[٧]، وتنطلق البنيوية التكوينية من منطلق سوسيولوجي قوامه إدراك البنى الذهنية التي تمثل الواقع الاجتماعي وتتجلى في الخطاب الروائي، لأن مرجعية الرواية هي العلاقات الاجتماعية والفكرية للجماعة الاجتماعية التي أنتجتها، ومن هنا دعا

غولدمان إلى ضرورة الاهتمام بالحركة المتواصلة من النص إلى المجتمع ومن المجتمع إلى النص[٨].

وظهرت الصياغة النهائية لسوسيولوجيا الرواية لدى الناقد (بيار ف. زيما)، في دراسته الموسومة بـ(من أجل نقد سوسيولوجيا الرواية) التي دعا فيها إلى الاهتمام بالبنية الداخلية للنص اعتماداً على تحليل سوسيو – لساني، وتناصي، للبحث فيها عن البنيات الإيديولوجية التي تظهر من خلال دلالة المفردات المرتبطة بها[٩]، وتتسم سوسيولوجيا النص السردي لدى (زيما) بسمتين رئيسين ، الأولى: شمولية هذا المجال النقدي للمظاهر النصية المختلفة(الرواية، الشعر، المسرح، النصوص، الترويجات التجارية)، والثانية: التركيز على المظاهر اللسانية للنص، والتي تتجلى فيها الظواهر الاجتماعية، وبذلك تنشغل سوسيولوجيا السرد الروائي لدى (زيما) بالكشف عن كيفية ترابط القضايا الاجتماعية بالبعد اللساني داخل النص السردي[١٠].

المبحث الأول: قيم الريف

يظهر المجتمع الريفي كنسق اجتماعي مقابل مجتمع المدينة، وقد لخص العالم الاجتماع الأمريكي (روبرد ريدفيلد- Roberd Redfield) خصائص المجتمع الريفي بأنه "صغير، منعزل، متجانس، يربط بين أعضائه إحساس قوي بالتضامن، والسلوك فيه تقليدي وتلقائي وشخصي"[١١]، ويأتي ذلك كنتيجة للتشابه بين السكّان في السمات العامة، والخبرات المتماثلة، وتحديد الأهداف المشتركة، مما يؤدي إلى الانسجام والمشاركة الشعورية، وهو ما أطلق عليه دوركايم (التضامن الآلي) الذي يسود المجتمعات ذات الحجم الصغير، نتيجة اشتراكهم في احترام القيم والتقاليد الاجتماعية السائدة والالتزام بها[١٢].

شهد الريف وقضاياه حضوراً ملحوظاً في الرواية العراقية منذ مرحلة مبكرة، فتناولت حياة الريف والقيم المتحكمة في علاقاته الاجتماعية، وليس هذا غريباً على التوجه الروائي في بلد كان يمثل سكان الريف في تلك المدة أكثر من نصف مجموع سكّانه[١٣]، وأمّا بالنسبة للرواية العراقية الصادرة منذ عام ٢٠٠٣ فنجد فيها حضوراً نسبياً للريف وقيمه، ويأتي فيها الريف حاملاً لمجموعة قيم ارتضاها العقل الجمعي، ومنها استمدت المعايير والأعراف الاجتماعية قوتها، تأتي في مقدمتها قيم الانسجام بين السكّان، والارتباط الوثيق بين أفراد العائلة، والتضحية في سبيل الجماعة، واحترام كبار السن، وغيرها من القيم التي تجعل الجماعة الاجتماعية المتمثلة في العائلة أو العشيرة أو سكان القرية أكثر تماسكاً وتناغماً من غيرها، كما لم تغفل هذه الرواية تجسيد دور الظروف السياسية في البلد في تغيير القيم الريفية، وإن تناول الرواية لقيم الريف إلى جانب الحياة الاجتماعية في المدينة يسهل الإحساس بالتباين في إيقاع الحياة الاجتماعية بين البيئتين، مثلما نجده ذلك رواية (كوبنهاغن مثلث الموت) إذ يقدم فيها المجتمع الريفي نفسه كحامل لمنظومة قيمية مضادة لقيم المدينة، من خلال شخصية (حميد هلال) ابن القرية الذي يجعل من هذه القضية بؤرة حواره مع ابن المدينة (علاء) الذي كان زميله في المدرسة، وذلك حين يلتقي به بعد سنوات من الفراق:

"كان لا يشغلكم سوى اللهو والمتعة، ولكن كيف، أنا أجيبك، اللهو بإحساس الآخر، والمتعة بالضحك عليه، أليس كذلك؟ أنتم يا أبناء المدن لا تعرفون الأخلاق، لم يسبق لكم أن تربيتم على احترام الآخر، كان الفلاح سلوتكم الوحيدة، تتسلون به وتنصبون له المكائد، لسبب واحد فقط، أن تضحكوا، والضحك فقط هو ما كان يشغلكم، ولكنكم كنتم

تنسون دائماً أن الفلاح ينتمي إلى عشيرة وأرض وسماء، تتغافلون أن الفلاح تربى على الأخلاق واحترام القيم"(١٤).

فالوعي بالتباين والانفصال الاجتماعي والأخلاقي بين قيم الريف والمدينة هو محور النص، يبدأ هذا الوعي بالتقابل الضدي بين (أنتم/نحن، قيم المدينة/ قيم الريف)، وينتهي بالتعصب ورفض الآخر، إذ يحصر المنظور الريفي التمسك بالقيم الأخلاقية على نفسه، ويجرد الآخر(المدينة) منها، ويعدها مصدر الانحلال القيمي، وفي الطرف المقابل تسند المدينة التخلف والسذاجة إلى الريف، وتجعل منه مادة للسخرية، وهو الأمر الذي يشكل بؤرة التوتر بين البيئتين، كما يؤكده حليم بركات في دراسته الاجتماعية حول القيم الاجتماعية، قائلاً "يشارك الفلاحون البدو شعورهم بأن المدينة هي مركز الفساد والميوعة الأخلاقية والتفكك والانحلال،... ويبادل أهل المدن البدو والفلاحين مشاعرهم السلبية، وبكثير من القسوة والتعالي والسخرية يصفونهم بالتخلف والسذاجة والجهل والخشونة وقلة الدراية بأصول اللياقة والحنكة والشطارة"(١٥)، ويركز النص على الرؤية الأحادية في تستند إلى الحكم المسبق والنظرة الجاهزة عند الطرفين تجاه الآخر، وذلك فضلاً عن اثر البعد الإيديولوجي المرتبط هنا بالموقف السياسي من السلطة، إذ إن الشخصية الريفية في تمثل السلطة في مقابل معارضة ابن المدينة (علاء) لهذه السلطة والموقف السلبي منها، انطلاقاً من كونها تفرض نمطاً معيناً من التفكير لا يتناسب حياة المدينة المتسمة بالتنوع والاختلاف، وتجعل من العنف وسيلتها الأساس في التعامل مع مخالفيها السياسيين، وإن اختيار طرفي الصراع القيمي لضمير الجمع(أنتم/نحن) يحمل دلالة ارتباط الاختلاف القيمي بين البيئتين بالجدل الطبقي والوعي الجمعي أكثر من ارتباطها بالقيم الفردية لدى الشخصيتين.

ويربط السرد الروائي بين النظرة المتعالية لأهل المدينة تجاه أهل القرى وبين حاجة أهل الريف إلى المدينة في الحصول على الخدمات الطبية والسلع وافتقارهم إلى التعليم، كما يظهر ذلك بوضوح في رواية (تمر الأصابع) التي تنطلق الأحداث فيها من حدث ذهاب الفتاة (إستبرق) مع والدها إلى المدينة لعيادة الطبيب، وهو الحدث الذي يمثل محور الدينامية في الرواية، إذ تتولد منه معظم الأحداث والتحولات السردية، ويسبب في توتر علاقة أهل الريف بالمدينة، وتغيير نظرتهم تجاهها، واتخاذهم الموقف منها:

" انطلق نوح من قريتنا الأولى(الصبح) ظُهراً، مصطحباً ابنته التي عطرت ثوبها ليصلا بعد ساعة إلى مدينة تكريت، وقبل أن يدخلا إلى عيادة أحد الأطباء، حيث كانت (إستبرق) تمشي خلفه مسافة خطوة، وهو يشق لها الطريق على رصيف السوق، مرّت سيارة مرسيديس سوداء على مهل، وامتد من نافذتها يد إلى مؤخرة(استبرق) وعبارة: خوش طيز، فصاحت البنت فزعة واستدار إليها الأب الذي سرعان ما هبّ غاضبًا، ساحباً السائق من رقبته صارخاً بوجهه: يا ابن الكلب، كمن يرفع جرة من عنقها، حتى أخرجه من نافذة السيارة"(١٦)

يجعل النص من التصرف المشين لدى فرد في المدينة سبباً لإطلاق حكم عام عليها من طرف الريف، وإلصاق (التحرش/ العار الأخلاقي) بها، مما يؤدي بهم إلى مقاطعتها – فيما بعد - حفاظاً على القيم التي يرون أنهم يمثلونها، وهذ بوصف الانعزال وسيلتهم لتجنب التأثر بالبيئة المنحرفة، كما تجسد فاعلية الوالد في الرد موقع قيم الشرف والعفة في سلّم القيم الريفية، إذ إن الحفاظ عليها في مقدمة الأولويات ويواجه أي محاولة للمساس بها ردّاً قوياً، مهما كانت العواقب المتوقعة.

وتتخذ رواية (تمر الأصابع) من قيم الانسجام والتناغم أساس تمثيله للواقع الريفي، إذ إن النسق الاجتماعي هناك يتسم بسمات الانسجام بين السكان والتوافق في الاهتمام، مما يجعل الجماعة الاجتماعية فيها أكثر تماسكاً من غيرها:

"لم أكن مختلفاً عن غيري من أبناء قرية (القشامر)، من حيث شعورنا والتزامنا الكلي بالمنظومة التي خلقها لنا جدي وربطنا بها، وخاصة أنها كانت مريحة وناجحة ومتطورة، حينما ساد الرضا والانسجام والتوافق حياة الجميع" (١٧).

تربط علاقة سببية بين شعور سكان قرية السارد بالارتياح والرضا تجاه المنظومة الاجتماعية وبين تشابههم في التفكير والسلوك (لم أكن مختلفاً عن غيري...حينما ساد الرضا..)، إذ تُولِّد أحادية القيم، وغياب وجود اتجاهات قيمية متباينة التمسكَ بالموروث عن الآباء والأجداد (التزامنا الكلي بالمنظومة التي خلقها لنا جدي)، وعدم التطلع إلى تغييره، وذلك لغياب أنموذج بديل يمكن أن يحل محل تلك القيم الموروثة. كما نلمس في رواية (تمر الأصابع) نفسها تمثيل المجتمع الريفي والقيم التي تحكم العلاقات القائمة بين أفرادها، إذ إن المجتمع الريفي يعُرف بأنه عائلي المرجع وأبوي السلطة، ويعد احترام كبار السن - والوالدين على وجه الخصوص- من قيمه المحورية، ويتجلى ذلك في علاقة والد السارد(نوح) مع أبيه وتوقيره له:

"أبي أكبر إخوته، لذا قد وقع عليه العبء الأكبر من العمل، ومن ممارسات جدي لتصوراته عن التربية الصارمة، وتغذيته بمفهوم الطاعة العمياء للوالدين (لأن رضا الله في رضا الوالدين)، فلم يرفض طلباً أو أمراً لوالده أبداً أبداً، ... أبي لم ينظر في عيني جدي أو حدق في وجهه على الإطلاق، دائماً ينظر إلى الأرض مستمعاً إلى كلامه بانتباه، تجاوز عمره الأربعين عاماً وهو يقول إنه يستحي من النظر إلى وجه أبيه" (١٨).

فتشكل الطاعة والتوقير أساس علاقة الشخصية مع والدها، ويلجأ النص إلى استنطاق لغة جسدها-إلى جانب لغتها الناطقة - لتمثيل حجم طاعتها للوالد، وتجسيد طريقة أدائها(لم ينظر في عيني جدي أو حدق في وجهه، دائماً ينظر إلى..)، وتسهم الطاعة المطلقة وتوزيع الأدوار وفق التراتبية المبنية على أساس الجنس والعمر(أبي أكبر إخوته لذا قد وقع عليه العبء الأكبر) في الحفاظ على العائلة الريفية وتوطيد أسسها، ومقاومة عوامل التفكك فيها، وهذا بوصف العائلة في الريف الوحدة الاجتماعية والاقتصادية الجوهرية، ويقتضي قيام هذه الوحدة واستمرارها تعاون أفرادها وتنظيم علاقاتهم فيما بينهم، لذا يحتل هذا النمط من العلاقة داخل العائلة العشائرية مكانة مرموقة في الريف، وتعد من الثوابت التي لا يجوز أن تمس، وتحاط بمجموعة من القيم والمثل العليا التي تحصنها(١٩).

ويعكس نمط حياة الشخصية الريفية (إبراهيم) في رواية (حدائق الرئيس) جانباً من القيم المتحكمة في الحياة الاجتماعية هناك، والتي تسودها القناعة والرضى، والعلاقات الاجتماعية الحميمة:

"... راح يؤدي جميع الالتزامات بالتقاليد الاجتماعية، من معاودة المرضى، ودفن الموتى، والتهنئة بالمواليد والأعراس، والمساعدة في جني المحاصيل، وفي الحصاد وما إلى ذلك، كان راضياً بهذا الأمان وهذا التعايش، شاعراً بان قريته هي أجمل عش في هذا العالم، لأنها هادئة ومسالمة، بل ولأنها منسية" (٢٠)

يتجاوز النص التلميح إلى الشخصية وملامحها أو ملامح الريف الجغرافية ليجعل من مشاعرها وعلاقاتها الاجتماعية مركز اهتمامه، معبراً بذلك عن القيم المتحكمة في الريف، أو الرؤية الريفية للعالم، "وهي الرؤية المنبثقة من درجة عالية من التجانس الثقافي الذي يمكن القول معه بنوع من المجتمع المستقر والمتكامل من حيث الوظيفة

السوسيولوجية، مجتمع يحكمه نسق اجتماعي واحد، وينهض على آليات الاعتماد المتبادل بين أفراده وجماعاته وشرائحه الاجتماعية المختلفة"[٢١]، ويأتي توظيف النص للسارد العليم من أجل التمكن من الإحاطة بالجوانب المتعددة التي تتعلق بمشاعر الشخصية وقناعاتها وسلوكياتها، والتي تبرز في مجموعها منظومة القيم الريفية التي تحكم الأبعاد الحياتية المختلفة هناك، إذ يتميز هذا النمط من السارد بإحاطته الشاملة بكل جوانب مسروده، وقدرته المطلقة في اختراق عقل الشخصية والتعرف على أفكارها ومشاعرها، ودوافع قيامها بأنماط من السلوك[٢٢]. وكما يتجلى التضامن الشعوري في الرواية نفسها بين سكان القرية عند عودة (عبد الله كافكا) من الأسر، ودرجة فرحهم بإطلاق سراحه، مع كونه ليس له أهل أو أقارب، إلاّ أن التضامن الشعوري، والرابطة الاجتماعية الوثيقة، وفرح أهل القرية بعودته ينسيه انعدام الأهل والاقارب:

"في ذلك المساء أقيم احتفال ضخم في باحة بيت عبد الله، أكبر من أي عرس وأكبر من ذلك الاحتفال الذي أقامه صالح ومريم حين وجداه رضيعاً، ذبح عجلان تبرع بها إبراهيم والسيدة زينب، وكبش سمين تبرع به طارق، الطباخات كل نساء القرية والمدعوون والمحتفلون كل أبناء القرية" [٢٣].

تُظهر المناسبةُ القريةَ كوحدة اجتماعية تربط سكانَها علاقات وثيقة، وهي تشكل حاضنة لأبنائها، تعوضهم انعدام الأهل والأقارب، فتعكس مشاركة أهل القرية الحميمة في المناسبة والإعداد لها هيمنة قيم التضامن والانسجام، ويسعى الاسترجاع الزمني من خلال عبارة (...حين وجداه رضيعاً) إلى تعميق الدلالة المقصودة المتمثلة في إبراز العلاقة الوثيقة بين أبناء القرية، من خلال التلميح إلى أن المحتفلين بعودته ليسوا من أهله وأقاربه؛ كونه لا يملك الأهل والأقارب من جهة، ودرجة فرح أهل القرية بعودته من جهة أخرى، إذ إن فرحهم بعودته يفوق فرح زوجين محرومين من الأطفال لسنوات طوال حين وجداه رضيعاً وتبناه، فاحتفالا-حينئذ- بالمناسبة احتفالاً يليق بفرحهم الغامر، ومع ذلك كان احتفال أهل القرية وفرحهم بعودته أكبر.

وتسهم القيم المتحكمة في الحياة الاجتماعية الريفية في هيمنة الهوية الجماعة على الأبعاد الحياتية المختلفة، لدرجة يفقد معها الفرد استقلاليته وهويته الذاتية، ويبدو عضواً في الجماعة أكثر من كونه فرداً له خصوصياته، تعبر رواية (حدائق الرئيس) عن هذا البعد من خلال إبراز التباين بين حياة الفتاة (قسمة) في القرية وحياتها في المدينة بعد أن هجرت إليها:

"قسمة التي أصبحت شابة جميلة هي أكثر غبطة بهذا الانتقال الذي طالما حلمت به، وهناك سجلت لمواصلة دراستها في معهد المعلمين، وفي البيت أصبحت لها غرفتها الخاصة، تعلق على جدرانها صور من تشاء من المشاهير، تستمع إلى الموسيقى التي تحب، تحلم بحرية وهي مستلقية في سريرها شبه عارية، وهو أمر لم يكن بمقدورها فعله عندما كانت في القرية، وسط عائلة كبيرة لا تترك هامشاً كافياً لفردية الفرد، وإنما تجبره على ن يكون جزءاً من المجموع، كتلة تشترك وتتشابه في كل شيء، وتحكمها منظومة تقاليد ثقيلة جامدة" [٢٤].

توفر تقنية الاسترجاع آلية المقارنة بين الزمنين الماضي والحاضر، لينطلق منها النص إلى إبراز التباين في نمط الحياة الاجتماعية بين الريف والمدينة، والذي يتمثل عماده في غياب الفردية في الريف وحضورها في المدينة، لأن الاسترجاع في جوهره تعبير عن وعي الذات بالزمن ودوره في تجسيد المفارقة والتغيير من أجل التوصّل إلى نقطة دلالية معينة [٢٥]، كما يأتي النمط المعياري للبيوت في البيئتين لترسيخ هذا التباين القيمي، إذ تتناسب البيوت في القرية مع العائلة الكبيرة والعيش المشترك، بينما يمنح

نمط البيوت في المدينة الفرد استقلاليته، وهذا ما يذهب إليه (يوري لوتمان) في إمكانية فهم المكان"بوصفه نظاماً اجتماعياً اقتصادياً عاطفياً ينتظم العلاقات البشرية في هذه المجالات"[٢٦]، ولا يكتفي النص بعرض تقاليد الريف وأعرافها فحسب؛ وإنما يعبر عن وجهة نظر السارد الإيديولوجية تجاه تضييق مساحة الحرية الفردية في الريف، ويختزل هذا الموقف في وصف منظومة التقاليد المتحكمة فيه بأنها (ثقيلة وجامدة)، مما يوحي بانتقاده لها، كونها تضيق الخناق على الفرد وتسلب حريته، ولا تتناسب مع الحياة العصرية.

وتتجلى سيطرة النزعة الجماعية في الريف من خلال امتلاك الجماعة الاجتماعية(العائلة الممتدة، العشيرة، القرية) للقرارات المصيرية المتعلقة بالحياة الشخصية للفرد، وذلك وفق الأعراف والتقاليد السائدة، وتكون تبعات تلك القرارات وآثارها في المرأة أكثر وضوحاً وتأثيراً منها في الرجل، ويعد ارتباط زواج المرأة بكثير من الأعراف والتقاليد الاجتماعية تجسيداً لاستلاب إرادتها، بحيث تتحول المرأة في كثير من الأحيان إلى "أداة للمصاهرة وإقامة الروابط بين العشائر من أجل زيادة قوتها وسطوتها ومالها، أو ضمن العشيرة (تزويج الفتاة من ابن عمها) من أجل زيادة لحمة العشيرة والحفاظ على ثروتها، فالمرأة أداة التحالف والتلاحم، ولا وجود لها خارج إطار هذا الدور"[٢٧]، نجد في رواية (أقراط ميناء) كيف ان زميلة الساردة (رشا) تُمنع من الزواج من الشخص الذي تحبه بسبب سيطرة التقاليد العشائرية المتعلقة:

"كانت رشا قد انتقلت إلى مركز الديوانية مع أهلها ليتخلصوا من مشاكل العشيرة التي تحكم حلقاته حول كبيرهم وصغيرهم، ولم يتحرروا من أصفاد تبعيتهم لها في بلد عقال رجاله يلتفت حول الشاجور والبندقية، (رشا) تصرخ بصمت كلما لاح شبح ابن عمها من بعيد، فلا وسيلة احتجاج غير نظرتها الممشوجة بالحسرة ولا فسحة رجاء من (نهوة) ابن عمها وقرار العشيرة المفصلي الذي يسود القانون"[٢٨].

فالنهوة بوصفها مقولة ثقافية تستمد قوتها من العرف العشائري الذي يمنح الأولوية لابن العم في الزواج من بنت عمه، ويعطيه الحق أن يمنعها من الزواج مع الأجانب[٢٩]، وهي تجعل من حق الفتاة في اختيار زوجها المستقبلي ضحية لرغبة الجماعة الاجتماعية، بغية توثيق علاقاتها الداخلية، ويعبر النص من خلال انتقال الشخصية في المكان السردي من أرض العشيرة إلى مركز المدينة عن مدى هيمنة الأعراف العشائرية وسطوتها على حياة الفرد في كلٍ من الريف والمدينة على حدٍ سواء، إذ لا يفيد(رشا) الهربُ من أرض العشيرة والاحتماء بمركز المدينة التي تعد بؤرة سلطة الدولة وحكم القانون، لأن يد العشيرة تصلها، ويعجز القانون عن حمايتها، لذا يكون هربها من سلطة العشيرة دون جدوى، وتبقى رهينة القيود التي تفرضها التقاليد الريفية، الأمر الذي تبرزه الرواية للتأكيد على أن المدينة لم تستطع أن تحافظ على قيمها بعد الهجرات الكثيرة، وسيطرة العوائل الريفية التي هاجرت إليها واستقرت فيها، لذا تحولت بدورها إلى قرية كبيرة من حيث انتشار القيم العشائرية، في مقابل ضعف القيم الحضرية ودور المؤسسات فيها.

وفي الطرف المقابل لمنع الفتاة من الزواج ممن تختاره، يمثل إجبارها على الزواج من الشخص الذي ترتضيه العشيرة أو العائلة الكبيرة الحالة المهيمنة في البيئة الريفية، الأمر الذي يؤدي في كثير من الأحيان إلى تفكيك العائلة وفشل الزواج المفروض، نجد التلميح هذه الظاهرة في رواية (حدائق الرئيس) حين تُجبر (مديحة) من الزواج من ابن عمها:

"أما سميحة فقد أجبرها أهلها على الزواج من أحد أبناء عمومتها لا تحبه، مانعت دون جدوى، وهربت بعد أربعين يوماً من زواجها منه، فضربوها وأعادوها إليه طريحة الفراش، أنجبت منه طفلة بعد عام، ثم هربت بعد الولادة بعشرة أيام تاركة طفلته فضربوها وأعادوها إليه بالبطانية" (٣٠).

فالسمة الرئيسة لهذا الزواج هي فرض العائلة الزواج على الفتاة وإلغاء إرادتها في هذا المشروع المصيري المرتبط بحاضرها ومستقبلها، وتصاحب عملية فرض الإرادة هذه ممارسة العنف الجسدي والنفسي المفرط تجاهها، مما يوحي بانتشار هذا النمط من التعامل القاسي في تلك البيئة الاجتماعية التي تهيمن عليها القساوة والعنف.

كما يمثل قتل المرأة بحجة الشرف أو غسل العار سمة أخرى من سمات المجتمع الريفي التي تبرزها النماذج الروائية، إذ يكون فعل القتل مغذياً من قبل مفردات المنظومة الاجتماعية التي تقوم على أساس اعتبار الإنسان عضواً داخل الجماعة الاجتماعية، وينسحب خطؤه على الجماعة ويجلب لها العار، هذا فضلًا عن التمييز على أساس الجنس في المجتمع الريفي الذي يفضل الذكور على الإناث، ليتبعه تقسيم الأدوار والمهام على هذا الأساس، تسجل رواية (مشرحة بغداد) الامتداد الزمني لظاهرة قتل الفتيات في الأرياف إلى ما بعد عام ٢٠٠٣، وذلك من خلال وقوفها عند حدث قتل الفتاة الريفية التي تصل جثتها إلى المشرحة:

"فتاة قروية في الثامنة عشرة من العمر، ماتت نتيجة تلقيها طعنة في القلب من أخيها الذي يصغرها بسنتين في العمر، لأن أهلها شكوا بحملها، فقد انقطعت عنها الدورة الشهرية لثلاثة أشهر متتالية، وانتفخت بطنها قليلاً، فشكّ الأهل فيها، بالرغم من أنها أكدت لهم بأنها لم تقترب من أي شخص، طبعاً فيما بعد اكتشف الأطباء الشرعيون بأنها فعلاً عذراء، وانتفاخ بطنها ليس ناتجاً عن حمل، وإنما لاضطرابات في الرحم والالتهاب في المبيضين بسبب تجمع دماء نزول العادة داخلها مما أدّى لانتفاخ بطنها" (٣١).

يوحي التلميح إلى عمر الأخ القاتل بالتمييز القائم على أساس الجنس لصالح الذكور، مما أدّى به إلى الشعور بضرورة معاقبة أخته التي تكبره، لأن الأعراف الاجتماعية تمنحه هذا الحق، كما يلفت النص النظر لإسناد عملية القتل إلى مجرد شكٍ، والإسراع فيها قبل التأكد منه، وذلك تضخيماً للجريمة وإغراقاً في الإدانة، وكأن حياة الفتاة في تلك البيئة غير جديرة بتجشم عناء التحقق من الأمر وإزالة الشك، وذلك فضلاً عن الإيحاء بوجود استعداد مسبق للقتل، بحيث أن مجرد الشكوك تكفي لإثارة الاستعداد وحدوث القتل.

ومع أن أثر السياسة كان أقل ظهوراً في الريف مقارنة بالمدينة، وذلك لتكثيف الأحزاب السياسية وأنظمة الحكم نشاطاتها في المدن، بوصفها البيئة الأكثر تأثيراً على سير الأحداث، إلا أن الريف وعلاقاته الاجتماعية لم يفلت من تأثير السلبي للسياسة، إذ تسببت في خلخلة العلاقات الاجتماعية الحميمة، وسلب الانسجام الموجود في فضائه، ففي رواية (شظايا فيروز) يسبب انتماء (عبود) إلى حزب البعث الحاكم في الإخلال بعلاقته الاجتماعية مع الأقارب وسكّان القرية، نتيجة لقيامه بكتابة التقارير الأمنية عنهم:

"خلال سنة واحدة فقط تم ترفيعه لينقل من درجة مؤيد في الحزب إلى عضو عامل، ومتّن علاقاته بقياديه من خلال تقارير سرية كتبها عن معارضين للحزب ومنتمين لأحزاب أخرى شملت أقاربنا وجيراننا، اختفى بعضهم في المعتقلات ولم يرجعوا أبداً، وعندما اندلعت الحرب مع إيران أصبح مخبراً معتمداً عن أماكن اختباء الشباب

المتخلفين والهاربين من الخدمة العسكرية، وطاف مع مفارز الحزب قرى محيط الجبل لتجنيد الموظفين وكبار السن في صفوف الجيش الشعبي الرديف للجيش النظامي" (٣٢).

يمثّل تعيين الحزب الحاكم أهل الريف عيوناً على بعضهم البعض تحولاً مفصلياً في تغيير القيم التي تحكم العلاقات الاجتماعية فيه، وذلك بإبدال القيم الأصيلة المتمثلة في التآزر والانسجام والمشاركة، بأخرى دخيلة على الحياة الريفية كالوشاية وتنكر علاقات القرابة والجوار، والتي تتنافى مع أخلاقيات الريف، وفي ربط النص التحول القيمي بالسياسة المتبعة لدى الحزب الحاكم موقف إيديولوجي من هذا التغيير والحكم عليه بالسلبية وإدانة فاعليه الاجتماعيين.

وتبيّن رواية (حصار العنكبوت) دور السياسية في إفساد نمط الحياة الاجتماعية في الريف الكوردي، وتحويل العلاقات الاجتماعية الحميمة إلى صراع داخل العشيرة أو العائلة الواحدة، والذي قد يصل حد المواجهة المسلحة:

"هما العشائر ذاتها، منهم من هو مع البيشمركة، ومنهم من اختار السلامة وحياة المدن الرخية والامتيازات السخية بانضمامه إلى تشكيلات (الفرسان)، حدث كثيراً أن تقابل أبناء العم أو حتى الإخوان تلك الهجومات" (٣٣).

فإرادة استبدال الولاء العشائري والقومي بالولاء السياسي من قبل السلطة تمثل بؤرة التقلب في العلاقات الريفية، والتي تسببت في انتفاء سمات الانسجام والتناغم المنتشرة فيها، وتغييرها بالانقسام والصراع المسلح، وتحويل القرية إلى مستودع خال من قيم الانتماء والارتباط، وهو ما يؤكد الترابط القائم بين هيمنة الأنظمة الاستبدادية وانتشار القيم السلبية، إذ تشجع هذه الأنظمة انتشار القيم الرديئة والسلوكيات الاجتماعية المنحرفة بغية سهولة تمكنها من ترسيخ دعائمها، كما أن المجتمعات التي تتحكم سلوكياته القيم المتخلفة تساهم في بقاء الأنظمة القهرية وتنفيذ برامجها التخريبية على المستويات المختلفة(٣٤).

وفي سياق اعتنائها بالقيم الاجتماعية الريفية والمؤثرات التي تغذيها تبين رواية (تمر الأصابع) أثر الدين في تزويد المجتمع الريفي بالقيم التي تساعده على البناء والنمو، وتسهم في ترسيخ التعاون والتضامن بين سكانه:

"كانت ذروة احتفالياتنا هي صلاة الجمعة حين نجتمع جميعاً، كباراً وصغاراً، الذكور يشكلون الصفوف الأمامية وصفوف النساء خلفهم، نلبس أفضل ثيابنا ونتعطر، وفي الربيع نفرش سجاداتنا على الحصى والرمل خارج المسجد، ويقف جدي مرتفعاً أمامنا على دكة الدرج الخارجي يخطب بنا، فنشعر بتوحدنا الكامل وتآخينا ونقاء أرواحنا وقربنا من السماء والله، حيث تهدر تكبيراتنا عند الصلاة ويدوي نطقنا المشترك لكلمة (آمين) متحداً مع أصوات أمواج النهر وحفيف الأشجار، وصداها البعيد على سفح الجبل يمنح المناخ رهبة أسطورية شبيهة بتصورنا عن يوم القيامة، كانت تلك أشد لحظاتنا توحداً وسلاماً وطهرانية روحية، نشعر بأن لنا روحاً واحدة، أما على الصُعد الذهنية والمفاهيم فقد كنا نشعر بتوافق تام وكأن لنا عقلاً واحداً مشتركاً نفكر به أو يفكر لنا" (٣٥).

يكشف الزمان والمكان السرديان (المسجد/ يوم الجمعة) عن أثر الدين وشعائره في الحياة الاجتماعية في الريف، انطلاقاً من تجسيد دور الدين في تشكيل الهوية الفكرية والثقافية المشتركة لهم، مما يجعل العلاقات الاجتماعية وروح التضامن مستندة إلى أسس فكرية وعقائدية متينة، من خلال ربطها بالبعد الآخروي، وإضفاء القدسية عليها،

وذلك فضلاً عن تجسيد النص لشمولية أثر الخطاب الديني على أهل القرية على المستويين العمودي (صغاراً وكباراً) والأفقي (الذكور... وصفوف النساء). وأمّا التدين بوصفه سلوكاً إنسانياً منبثقاً من فهم الدين وممارسته فهو يحمل طابع البيئة الاجتماعية، وتبرز الرواية ارتباطه في الريف بالأولياء والصالحين أو بقبورهم بعد موتهم، وهو أمر يتناسب مع الحاجات النفسية والاجتماعية لهذه البيئة الاجتماعية، إذ يطلبون منهم شفاء مرضاهم، وتحقيق أمنياتهم، ويتبركون بهم، وتتجلى ذلك على نحوٍ واضح في شخصية (ملا مطلق) جدّ السارد، الذي عُرف بين أهل القرية بتدينه، لذا يتحول قبره بعد وفاته إلى مزار لهم يزورونه ويتبركون به:

"وتم الاكتفاء بدفن جدي في رأس أعلى مرتفع في المقبرة، ووضع رايات خضراء على ضريحه، وجرار مليئة بالملح يلعق منها المتبركون كلما زاروه، ويقص المرضى شرائط من رايات قبره كي يعلقوها في رقابهم أو سواعدهم كأحجية مباركة، بعد أن تم الاكتفاء بمكافأة الجد باعتباره رجلاً مباركاً ومن أولياء الله الصالحين" (٣٦).

بالنظر إلى الحقل الدلالي الذي تنتمي إليه الكلمات المشكّلة للنص يمكننا معرفة نمط التدين السائد في القرية، وهذا بوصف الحقل الدلالي "مجموعة من الكلمات توضع عادة تحت لفظ عام يجمعها"(٣٧)، إذ تعد الكلمة بنية النص الأساس، لأنها الواجهة الأولى التي يلمسها المتلقي، ويتخذ منها طريقاً للوصول إلى دلالات النص العميقة، وينتمي معظم مفردات النص إلى حقل الصالحين وقبورهم، كما نجد في: (المقبرة/ رايات خضراء/ الضريح/ التبرك/ المباركة/ المتبركون/ والشرائط/ والأحجية /أولياء الله/ الصالحين) مما يوحي باندماج التدين هناك بالمقولات الدينية المرتبطة بالأشخاص(الأولياء/الصالحين) أحيّاء أو ميتين، وكراماتهم، وقدرتهم على الشفاء، وتأثيرهم في سير الأحداث.

المبحث الثاني: قيم المدينة

المدينة نظام اجتماعي قبل أن تكون هندسة معمارية، وكان لنمو المدينة الحديثة أثر كبير ليس في عادات الناس وأنماط سلوكهم فحسب؛ بل على أنماط التفكير والقيم أيضاً، يلخص العالِم الاجتماع البريطاني المعاصر(أنتوني غِدنِز - Anthony Giddens) سمات المدن والمراكز الحضرية في ثلاثة محاور رئيسة، الأول: إسهامها في الإنتاجية الاقتصادية والتنافسية، والارتقاء بالمرافق التي تشكل القاعدة الاجتماعية للنمو الاقتصادي، وما يتطلب ذلك من توفير نظام تعليمي فعّال، ووسائل النقل العامة، والمرافق السكنية المعقولة الكلفة، والقدرة على حفظ الأمن والنظام والالتزام بالقوانين. والثاني: تفعيل التنوع الثقافي والسعي للتكامل بين الثقافات الفرعية والجماعات الإثنية. الثالث: فتح المجال للمشاركة والتمثيل السياسي وممارسة الحقوق المدنية، وفاعلية جماعات الضغط(٣٨)، وكما يحدد (لويس ويرث - Louis wirth) خصائص المجتمع الحضري بقوله: "كلما زاد عدد السكان وارتفعت معدلات كثافتهم وعظم تباينهم، عبّر ذلك عن الخصائص المرتبطة بالحضرية، تلك التي تتمثل في ضعف روابط القرابة والجيرة وتضاؤلها، ونتيجة لذلك تظهر المنافسة ووسائل الضبط الاجتماعي الرسمي، لتحل محل روابط التضامن"(٣٩).

وتمثل المدينة موضوع الرواية الأساس، انطلاقاً من كون الرواية ملحمة بورجوازية، وفناً للمدينة، ومع أن الرواية تتناول المدينة من أكثر من زاوية، إلا أن تمثيل نمط الحياة الاجتماعية فيها يشكل أحد موضوعاتها الأساس، انطلاقاً من الوعي بأثر البيئة المكانية

في نمط الحياة الاجتماعية والقيم التي تحكمها، وعلى الصعيد العراقي فقد رصد السرد الروائي تجسيد أثر الأحداث التي مرّ بها البلد على الحياة الاجتماعية في المدن، وهذا بوصف المدينة محور التغييرات الجارية التي انعكس تأثيرها في الأبعاد الحياتية المختلفة، والتي تتمثل في اختفاء القيم الإيجابية التي تعكس الوجه الحضاري للمدينة، من العلاقات الاجتماعية المتوازنة، وتواجد الثقة المتبادلة، وقبول الآخر المختلف، وهيمنة حكم القانون، وقيام المؤسسات بدورهم في تنظيم الأبعاد الحياتية، وهذا كلّه لصالح هيمنة القيم السلبية المضادة التي تعكس الانحلال القيمي واختفاء الوجه الحضري المشرق للمدن العراقية.

يمثل تراجع قيم المدينة لصالح قيم الريف –السلبية منها خصوصاً- جانباً مهماً من التحولات القيمية التي جرت في المدينة العراقية، لأنه أدّى إلى إفراغ المدينة من محتواها الحضري، وجعلها مجرد كتلة سكانية كبيرة، وذلك نتيجة لعجز المدن عن استيعاب تصاعد الهجرة الريفية إليها، والتي حدثت من خلال موجات من النزوح بدأت منذ عشرينيات القرن العشرين ومازالت مستمرة[٤٠]، ويشكل رصد العلاقة المتذبذبة بين النظامين القيميين(الريفي/ المديني)، جانباً من اهتمام النماذج الروائية المختارة، ويرتبط هذا الرصد والتقابل بوعي سردي بمجريات الأحداث وأثرها في نمط الحياة الاجتماعية، ففي رواية (أيام التراب) تشعر الساردة الحاملة لقيم المدينة بالضياع والغربة في مدينتها (بغداد)، بعد أن سيطر الغرباء(الريفيون) عليها:

"عندما نخرج من القصر ونضطر للاختلاط بالآخرين نسمع لغة فيها كثير من الكلمات البذيئة والنابية، دائماً كانت تدهشني قدرة الآخرين على تمرير مثل هذه القذارة على ألسنتهم بدون إحساس بالذنب أو الضعة، أو حتى الحرج، عندما أسمع واحدة من تلك الكلمات ينتابني إحساس غير مريح، كالتصاق الأوساخ بي، أحس بأنها أوساخ تريد أن تحولني إلى واحدة منهم، لكن ما أن أعود إلى القصر وألتقي بدائرتي المختارة من البشر حتى يعاودني الشعور بالنظافة من رقيّ اللغة التي نستعملها، والتي أصبحت عملة نادرة في شوارع المدينة، لغة التخاطب عندهم لم يعد فيها أي أثر للاحترام، لغتنا تمنحنا حدوداً ديموغرافية واضحة المعالم، فالمدينة العريقة التي شيدناها والتي نعيش فيها منذ سبعة أجيال باتت تلاعبنا لعبة السراب المخادع، تمنحنا هوية اعتقدناها راسخة ولكنها ليست كذلك، الريفيون المتكاثرون في المدينة يرون فينا أقلية يجب الخلاص منها، لكي لا يبقى شيء يذكرهم بكونهم طارئين، كما يبدو خيارنا الذي تبعناه بولهٍ وحرفية في الانحياز لأسلوب حياة مخالف لما اعتادت عليه الغالبية، قد جلب لنا العداء غير المفهوم، وصيّرنا أهدافاً سهلة في وسط يتصرف تجاهنا على نحوٍ عدائي لا يُطاق"[٤١].

يمثل الصراع القيمي بين المدينة والريف نقطة ارتكاز النص، والذي تنهزم المدينة فيه أمام الريف في حيّزها المكاني(المدينة)، فتضطر الساردة للاحتماء بفضائها الخاص (القصر)، وبدائرتها المختارة من البشر (العائلة)، بغية تجنب تأثيرات تريّف المدينة، وتمثل اللغة واجهة مظهر الصراع بين المنظومتين، بوصفها طريقة في التفكير والتعبير، والحامل الأكبر للمنتج الثقافي[٤٢]، إذ يمثل تدني مستوى اللغة سمة الريف في مقابل رقي لغة المدينة، وتنطلق الساردة من منظومتها القيمية ضد عناصر من الريف، مما يجعل النص متشبعاً بلغة سردية مشحونة بأحكام قيمية سلبية ضد الريف، فهو مآل القيم السلبية(اللغة النابية/ الأوساخ/ عدم الإحساس بالحرج/ اختفاء أثر الاحترام)، في حين مثّلت المدينة مرجع القيم الإيجابية(النظافة/ الرقي/ الاحترام/ التميز)، وعلى مستوى نزعتها الجماعية تتحدث الساردة بلسان الجماعة التي تمثل قيمها، وتحمل هموم خسارتها أمام منظومة القيم الريفية، وتَعد ذلك زوالاً للمنجز الثقافي والحضاري الذي

اكتسبته المدينة خلال عقود من الزمن، وإذ كانت المدينة في الروايات العربية - في الغالب- فضاء للاغتراب والضياع بالنسبة للريفي الذي يهاجر إليها أو يسكن فيها[٤٣]، فإنها تنتج في النص هذا الشعور لأهالي المدينة القدماء، كونها لم تبق فيها من سمات التحضر، وأصبحت قرية كبيرة. وإن كبر حجم التغيير القيمي الذي شهدته المدينة استطاع أن يجردها من سماتها الحضرية تماماً مقابل النسق الريفي المضاد، كما تؤكد الرواية ذلك في موضع آخر:

"لا أكاد أعرف أحداً في هذه المدينة التي تريفت إلى حد لم يعد ينطبق عليها اسم المدينة إلا لجهة تعداد السكان الذين يحتشدون في انغلاق يصعب اختراقه، أصدقاؤنا ومعارفنا الحقيقيون هربوا، هاجروا، ماتوا"[٤٤].

سبب التغيير الجوهري تنكر المدينة لذاتها السابقة من جهة، ولسكانها الأصليين من جهة أخرى، لأن سيطرة الريف لم يدع مجالاً لبقائهم هنا، وإنما اضطروا إلى الاختفاء من خلال الهجرة أو الهرب أو الموت، وبذلك يستند الريف إلى سمته المحورية المتمثلة في الأحادية والتفرد، فلا يسمح بتواجد الاختلاف، خلافاً لما يعرف عن النسق المديني في سعيه إلى الحفاظ على التنوع، والسماح بتواجد التكوينات المتنوعة، والهويات المتعددة[٤٥]، وَجَعْلِ ذلك وسيلة للإثراء الثقافي، إذ "إن التراث الثقافي المشترك يزداد غنى بمساهمة الأنماط الثقافية المتنوعة"[٤٦].

وكما تلفت النماذج الروائية الأنظار إلى استرداد القيم العشائرية قوتها في المدن بعد تغيير عام ٢٠٠٣ وعودة الانتماء إلى الجماعات الصغيرة (القبيلة/ العشيرة/ الطائفة/ الحزب) إلى السطح، في ظل غياب الدولة وسلطة القانون، إذ أصبحت العشيرة أو القبيلة بديلاً عن عدد من المؤسسات الرسمية في وضع مبادئ عشائرية للعلاقات الاجتماعية وحل النزاعات، ترصد رواية (مقتل بائع الكتب) تنامي دور العشيرة بعد أحداث عام ٢٠٠٣من خلال مذكرات الشخصية الرئيسة (محمود المرزوق) الذي سجل مجريات تلك الأيام:

"اليوم تحوّل مزاح بذيء بين صديقين إلى مشاجرة بالسكاكين، وتدخلات أقارب وإطلاق نار، مات اثنان وجرح خمسة، صار النزاع عشائرياً، قال عبد الله حارس العمارة: في جلسة فصل عشائري سيحلون المشكلة، الدولة في انهيار، والسلطة اليوم للعشيرة والطائفة والجماعات المسلحة والمافيات"[٤٧].

فالإيحاء الزمني (اليوم) المسند إلى التحديد الوارد في صفحة المذكرة (٦/ أيلول/ ٢٠٠٣) يحمل الحكم التقييمي السلبي على مرحلة ما بعد التغيير من حيث هيمنة القيم العشائرية وتحكمها في المكان (المدينة)، بحيث عادت بها إلى تعدد مراكز القوى (العشيرة/ الطائفة/ الجماعات المسلحة/ المافيات)، كما تكشف العودة السريعة للقيم العشائرية إلى الواجهة فور سقوط النظام عن التحضر السطحي المضلِل الذي شهدته المدن العراقية، في مقابل الجذور الراسخة للقيم والأعراف العشائرية فيها، أو ما يسمى بظاهرة (البداوة المقنعة) التي سرعان ما ينكشف وجهها الحقيقي حين تتيح لها الفرصة.

وكما تلمح رواية (منازل الوحشة) إلى عودة هيمنة العشيرة والأعراف العشائرية في مجالات الحياة المختلفة في المدن بعد التغيير، بحيث أصبح تدخل العشيرة في شؤون المؤسسات والتخصصات العلمية الدقيقة أمراً شائعاً:

"عندما اتصلتُ بصديقنا الدكتور حسام لطلب العون بشأن تدبّر أمر حبوب سلوان أكمل لي حديثه عن العشائر التي أخذت مكانها في الصدارة شيئاً فشيئاً حتى صارت تتدخل في عملهم وتقتص منهم وتفرض مبالغ يدفعونها تعويضاً عن الخسارات إن حصلت: (لم يعد هناك شيء اسمه الحقائق الطبية أم سلوان، تراجعت سطوة العلم)، ...ابتعدَ عن مرضاه

وأغلق عيادته شأن الباقين، وصار يقضي الوقت في البيت في متابعة الفن والغاليرهات عبر الإنترنيت" (٤٨).

تنطلق محاصرةُ الأعراف والعصبيات العشائرية لحياة لمدينةَ من اعتقاد العشيرة بتعدد وظائفها، والذي رسخ من خلال أدائها لتلك الوظائف لمدة زمنية طويلة، حيث كانت العشيرة عبارة عن وحدة سياسية واجتماعية واقتصادية مستقلة، تمارس كافة الأنشطة المتعلقة بحياة أعضائها، وهو الأمر الذي أدى إلى توقف الأبعاد الحياتية المتباينة في المدينة (ابتعدَ عن مرضاه وأغلق عيادته)، لتَعارُض هذا التوجه الشمولي مع قيم التمدن المبنية على أساس التخصص والتكامل وتقسيم المهام، إلى جانب توسيع مجال العمل المؤسسي.

ويشكل الوعي بالتحولات الجارية على القيم التي تحكم العلاقات الاجتماعية جانباً آخر من جوانب اشتغال السرد الروائي، وذلك لأن الظروف المضطربة التي عاشته المدن قد تسببت في زحزحة تلك العلاقات وانحرافها عن مسارها الطبيعي، الأمر الذي ترك شرخاً كبيراً داخل المجتمع، لأن العلاقات الاجتماعية تعكس حالة المجتمع في شموليتها، والتغييرات التي تحدث داخل المجتمعات هي بالأساس تعبير عن التغير في العلاقات الاجتماعية، "فإذا ما تطور مجتمع على أية صورة فإن هذا التطور مسجل كماً وكيفاً في شبكة علاقاته...، وعندما يرتخي التوتر في خيوط الشبكة فتصبح عاجزة عن القيام بالنشاط المشترك بصورة فعالة، فذلك أمارة على أن المجتمع مريض، وأنه ماض إلى نهايته"(٤٩)، وقد شمل هذه التأثيرات السلبية العلاقات الاجتماعية بنمطيها؛ الأولية المتمثلة في القرابة والصداقة والجيرة، والثانوية المنعقدة داخل المؤسسات الرسمية، فعلى مستوى علاقات القرابة، تكشف رواية (ريام وكفى) عن وصول القيم المتحكمة في العلاقة الاجتماعية في المدن إلى مستويات متدنية، من خلال تلميحها إلى التحرش بالفتاة (صابرين) من قبل عمها، كما نتلمس ذلك من خلال حديث الأم عن هذا الحدث:

"عمك الذي تصورته أباً تحرش بصابرين أثناء ما كنتُ وهند في سوق الأقمشة، وأنتِ في الجامعة، ولو لا عناية الله لهتك عرضها، صابرين قاومته وشجّت رأسه بالمزهرية" (٥٠).

يتجسد كسر أفق توقع الشخصية على نحو سلبي تجاه العلاقة التي تربطها بأقرب أقاربها(العم) عمق التغييرات القيمية التي شهدتها العلاقات الاجتماعية، وكما يرسم المسافة الشاسعة بين ما هو معهود من قبل ومتوقع من هذه العلاقة وبين ما وصلت إليه في أرض الواقع من التشويه والهبوط.

وكما تبرز رواية (قشور الباذنجان) الأثر السلبي الذي تركته السياسة المتبعة من قبل النظام السابق في تراجع القيم الاجتماعية الإيجابية وهيمنة القيم السلبية في المدن، إذ تسبب انتشار ظاهرة التجسس وكتابة التقارير الأمنية في استبدال الثقة المتبادلة بين الأقارب والجيران بالخوف التشكيك:

"الحياة لم تعد كذلك، صارت الناس تنهش أقرب المقربين إليها، وتكتب تقارير الموت عن الجار والصديق، حتى أنها كتبت عن الأب الطاعن في السن حتى تأخذ ثروته قبل أوانها، وعلى شاشة التلفزيون رأينا بأنفسنا كيف قتل الأب ابنه الوحيد بحجة أنه لم يشارك في الحرب على إيران" (٥١).

يستهل النص برصد التغيير في نمط العلاقات الاجتماعية، من خلال التقابل بين الزمنين الماضي والحاضر(الحياة لم تعد كذلك)، إلى جانب توظيفه للفعل الدال على الصيرورة والتحول(صار) لتأكيد حداثة تلك القيم السلبية في المدن العراقية وعدم وجودها في السابق، ومن ثَمّ يفسر هذا التغيير القيمي بما أحدثته السياسة من تضعيف القيم الأصيلة

المتمثلة في الوفاء والتضحية وتبديلها بقيم دخيلة كالأنانية والمصلحية، الأمر الذي أدى بأفراد المجتمع إلى التضحية بأوثق العلاقات الاجتماعية وأكثرها نقاء من أجل الحصول على المنح المالية أو الترقيات الحزبية.

وكانت الانتماءات الحزبية والولاءات السياسية سبباً في خلق حالات الانقسام والتشتت في بنية العلاقات الاجتماعية، وتنكّر روابط القرابة، كما نتلمس ذلك من خلال رصد رواية (كوبنهاغن مثلث الموت) لموقف (حليم) العضو في حزب البعث الحاكم من أقاربه غير المنتمين إلى هذا الحزب:

"كان حليم وإخوته يقولون لمن يسألهم عنا، بأننا أولاد مدينة واحدة، وليست هناك أية صلة قرابة تجمعنا، لأنه وإخوته كانوا يخشون على سمعتهم من التلوث بسببنا، كونهم من البعثيين المرموقين، ونحن من المغضوب عليهم حسب قوانين السلطة الساقطة، ثم صار تنكرّهم لنا أشد وأعنف عندما أعدم "صابر" أخي الأكبر" (٥٢).

ينطلق النص من الوعي بأثر السياسة المتبعة من قبل النظام في إضعاف العلاقات الاجتماعية، وتبديل روابط القرابة بالروابط الحزبية والإيديولوجية، ووضع الحجر الاجتماعي على المنتمين إليه، وذلك من أجل تعميق إيديولوجية الحزب الواحد والقائد الأوحد في دواخلهم، وعدم تأثر انتمائهم الحزبي بهذه العلاقات.

وفي سياق الوعي السردي بالقيم السلبية التي اكتسبتها المدن العراقية في زمن النظام البائد تبرز رواية (أساتذة الوهم) هيمنة قيم القتل والعنف المفرط فيها، إذ كانت مشاهد القتل وسفك الدماء تعد حدثاً يومياً:

"فما أن تلقي السلطات القبض على أي فرار(هارب) فإن الأمر لا يحتاج مدة طويلة للإعدام، وأحياناً يتم الإعدام داخل المدينة، أمام مرأى الناس، وهو مشهد متكرر في هذه المدينة التي كانت تتغربن وتتحضر وتترقى من جهة، ومن جهة أخرى تشبه أيام الإمبراطوريات القديمة في تقديم مشهد الموت علناً، حيث يوضع الفرار من الحرب على خشبة أمام الناس ويطلق عليه الرصاص" (٥٣).

فاختيار النص لـ(صيغة التواتر التكراري المتشابه- Recit iterartif) المتمثل في التعبير دفعة واحدة عن جملة من الأحداث المتشابهة (وهو مشهد متكرر..) يأتي للتعبير عن سيطرة قيم العنف المنظم على المدينة، وتحول مشاهد القتل والإعدامات إلى حدث مألوف، لاقتران هذه الصيغة في السرد الروائي بالأحداث النمطية المألوفة التي يتكرر حدوثها(٥٤)، وذلك بتوظيف صياغات لغوية قادرة على الإخبار بعبارة واحدة عن الحدث الذي يتكرر لمرات عدّة(٥٥)، ويؤكد تلميح النص إلى توجه المدينة نحو مركزين متضادين (تتغربن وتتحضر/ تشبه أيام الإمبراطوريات) نظرية القناع التي تعيش بها المدن العراقية في ظل الاستبداد السياسي، حيث تظهر في بعدها المادي (الشوارع والجسور والأبنية والأسواق والفنادق...ألخ) الوجه الحضري، بينما تشبه في بعدها القيمية الإمبراطوريات القديمة، وهو الأمر الذي تبينه الرواية وتؤكد عليه في مواضع أخرى(٥٦).

وتعرض رواية (قشور الباذنجان) لامتداد الاختلال القيمي وانتشار القتل وإلغاء الآخر إلى ما بعد التغيير، حين أصبحت مدينة (بغداد) مسرحاً لعمليات القتل والخراب:

"حلّ في بغداد خراب من نوع آخر لم نعرفه ولم نصدقه، سيارات مفخخة، عبوات ناسفة، انتحاريون من الرجال والنساء والبهائم والمجانين، عمليات خطف مبرمجة، القتل عشوائياً في الأسواق والشوارع، القتل على الهوية، إن كنت شيعياً يقتلك السنة، وإن كنت سنياً يقتلك الشيعة، القتل ذبحاً، وهذه المرة على شاشة التلفزيون امام مليارات البشر، خطف ونهب وسلب وحرائق وتخريب متعمد للبنايات والوزارات والمدارس،

اغتصاب النساء والغلمان، وميلشيات لا تدري من هو قائدها، أحزاب بالجملة، خراب لا يشبه أي خراب في التاريخ، المدن كلها مستباحة ومنذورة للموت، ولم تعد التوابير تكفي ولا القبور" (٥٧).

يتشكل النص من دمج مشاهد قصيرة متلاحقة، ومونتاج يقفز على تفاصيل أحداث الخراب والاختلال القيمي في المدينة، وكأنه يسعى في لهثة للّحاق بها وتسجيلها خوفاً من إفلاتها منه بسبب كثرتها وتتابعها، بحيث لا يمكن إدراكها من خلال سرد متريث تفصيلي، لذا يكتفي بعرض العناوين ويترك التفاصيل، وينتقل بين الأزمنة والأمكنة، بحثاً عن الأحداث الأكثر دلالة، مما يضع المتلقي أمام لقطات سريعة المرور تقوده إلى الإحاطة بأبعاد الصورة الكلية، ومع تباين المشاهد واللقطات إلا أنها تلتف حول بؤرة واحدة تتمثل في الخراب المنتشر في المدينة، وقد استعارت الرواية هذه التقنية المسماة بـ(اللقطات السريعة) من السينما، حيث يعد التوظيف المنتظم لعمليات التبادل السريع بين اللقطات من خصائص هذا الفن، "بينما نجد الرواية يكاد يضارع السينما في ذلك عندما تستغرق في تصوير حدث بسيط، ثم في لحظة سريعة من جانب توجز أحداثاً أخرى طويلة في كلمات مكثفة"(٥٨) الأمر الذي يوحي بارتفاع الوعي الفني لدى الروائي العراقي في توظيف الوسائل البصرية المتعلقة بالسينما لتعميق الرؤية الجمالية، وخلق تواصل فعّال مع المتلقي، لأن مبدأ علاقة السرد بالسينما يتمثل في كيفية العرض، إذ إن "وسيلة السينما هي (الصورة السيمائية) التي تعرض بشكل متتابع ضمن شريط سينمائي، أمّا وسيلة السرد فهي (المفردة اللغوية) التي تُقرأ بشكل متتابع ضمن الشريط السردي، وبمقابلة الشريط السينمائي مع الشريط السردي يتجلى التكنيك السينمائي، وتبرز ملامحه الأسلوبية والفنية بشكل واضح، وتتحول الوسائل السينمائية إلى وسائل سردية عن طريق التحكم بالشريط السردي الذي يترجم على وفق المنظومة الذهنية إلى صور تتكون وتتحرك على شاشة المخيلة"(٥٩)، وهو ما يوفر في النص النزوع الاختزالي في عرض أوضاع المدينة الدالة على التغيير القيمي في مرحلة ما بعد التغيير.

وتمثل اختلال العلاقات الاجتماعية في المدن العراقية، وانتشار قيم الشك في الآخر والخوف منه موضع اهتمام رواية (أقسى الشهور)، إذ يكون مجتمع الرواية أنموذجاً للهشاشة والتفكك، ويهيمن الشك وانعدام الثقة على علاقات معظم شخصياتها، بحيث لا يطمئن أحد منهم إلى من يعيش معه أو ما يحدث حوله، لذا حين تصل رسالة تهديد بالقتل من مجهول إلى الشخصية الرئيسة (جلال ملك) يشكّ في كل من يعرفه بأنه هو مرسل الرسالة، فيظن تارة بأنه الشرطي الذي أوقف سيارته، وأخرى بأنه حارس دائرته، أو جاره أو صديقه أو الحلاق الذي يقص شعره، أو صاحب الدكان الذي يشتري منه حاجات البيت:

"هو إذن في قلب الحدث، تطارده أشباح غير مرئية، يراها بعض المرات في وجوه أقرب الناس إليه في شارع الدير، في وجه سائق التاكسي نهاد، جاره عادل، وجه جواد رغم البراءة المتسمة فيه، وسعد الحلّاق المعتصم بعالمه الأنثوي وإكسسواراته المتشكِّلة من أساور جلدية وأحذية أجنبية وعطور نفاذة وحواجب معتنى بها، ... ذلك كله في مجتمع يضاعف هو الآخر ألسنة الشكوك والتقولات مما يجعل من العلامات كلها تُجمع على أنه مطارد من قوى خفية وغير مفهومة الدوافع، قوى تدفع زورق حياته نحو لجة بحرٍ يتناءى به يوماً بعد آخر عن الساحل" (٦٠).

يبرز السرد النفسي مشكلة الشخصية الناتجة عن علاقاتها الهشة مع الذات والآخرين والفضاء العام (المدينة) الذي تعيش فيه، فهي لا تستطيع أن تثق بأحد وتطمئن إليه، لا

فـرداً ولا جماعـة اجتماعيـة ولا مؤسسـة ولا سـلطة، ويمثـل الشـك وسـوء الظـن بـالجميع القاعـدة التـي تحكـم شـبكة علاقتهـا مـع الجميـع، ولا تقتصـر الحالـة علـى الشخصـية المـذكورة، وإنمـا تصـبح القاعـدة المتحكمـة فـي العلاقـات داخـل المدينـة علـى نحـو عـام (فـي مجتمع يضاعف هو الآخر ألسنة الشكوك والتقولات).

وأصـبح انتشـار القتـل والاسـتهانة بـالروح الإنسـانية بعـد أحـداث عـام ٢٠٠٣ مـن أكثـر القـيم المتحكمـة فـي المـدن العراقيـة، تقـف روايـة (قشـور الباذنجـان) عنـد هـذا التحـول الخطيـر المؤدي إلى انتشار القتل وسلب حق الحياة من الآخر:

"أصـبح المـوت معتـاداً، رخيصـاً، لا ثمـن لـه، أولاد الشـر يـذبحون النـاس علـى الهويـة والمـذهب والـدين والثقافـة والأصـل، أيهـا الشـر الـرجيم مـا الـذي تريـده منـي ومـن غيـري فـي وطن يتهاوى؟ اللعنة عليك، اللعنة، اللعنة عليكم"(٦١).

فتغيـر النظـرة إلـى الـروح الإنسـانية والاسـتهانة بهـا هـو الـدافع وراء مـا يحـدث، إذ إن فقـدان الـذات الفرديـة أو الجماعيـة لمشـاعرها تجـاه الآخـر بوصـفه إنسـاناً يبـرر قتلـه، لأن القتـل تجسـيد لفـك الارتبـاط العلائقـي بـين الـذات والآخـر، وهـو نـاتج عـن انهيـار قـيم الألفـة والحمايـة، وحـل قـيم العـدوان والاضـطهاد محلهـا، ممـا يـؤدي إلـى بـروز روح الأنانيـة والتقوقـع علـى الـذات أو الجماعـة المرجعيـة، وفقـدان الآخـر لاعتباراتـه الإنسـانية، "وفـك الارتبـاط العلائقـي ومـا يرافقـه مـن بـرود عـاطفي يخلـق غربـة كبيـرة بـين المعتـدي وضـحيته، ويسـلخ عنهـا مشـاركتها لـه فـي الإنسـانية"(٦٢)، ومـع اختفـاء مشـاعر الحـب والمشـاركة الوجدانية تنفجر منابع الحقد الذي يفتح باب العنف على مصراعيه.

كمـا تلمـح روايـة (حديقـة حيـاة) إلـى اختفـاء القـيم الأصـيلة المتمثلـة فـي الشـهامة ومسـاعدة الضـعفاء فـي المدينـة لصـالح قـيم الجشـع والمنفعـة الشخصـية واسـتغلال الضـعفاء، ونـتلمس ذلـك فـي الضـغوطات التـي يمارسـها أحـد أصـحاب المـال علـى الأرملـة (حيـاة) وابنتهـا الوحيدة(ميسـاء) لشـراء بيتهمـا وتحويلـه إلـى مشـروع تجـاري مـربح، وحـين ترفضـان يلجـأ هو إلى الضغوطات والوعيد، كما يتجلى في حواره مع ميساء:

" - أين أمك يا بنت؟

- *من أنت وماذا تريد؟*
- *ألا تعرفين؟ أريد أن أنهي الموضوع، ثلاث سنوات وأنا أنتظر.*
- *أي موضوع؟*
- *شراء هذه الخربة، حديقة أمك التي لا تريد التنازل عنها.*
- *ولن تتنازل.*
- *اسـمعي يـا بنـت، أنـت، أخبـري أمـكِ أن العنـاد لـن يوصـلها إلـى نتيجـة، اسـمعي، قـولي لها أن يدي تصل إلى أي مكان، وسترون، فهمت؟*

أُغلق النافذة وأبكي: لو كان في البيت سواي زياد أو والدي لما حدث لنا كل هذا(٦٣).

فعـدم وجـود رجـل يـدافع عـن حـق الأرملـة وابنتهـا يجعـل التـاجر الجشـع يطمـح فـي البيـت والحديقـة ويتوعـدهما فـي حـال عـدم خضـوعهما لأطماعـه (أسـمعي...، يـدي تصـل إلـى أي مكـان، سـترون)، وهـو مـا يتنـافى مـع القـيم الأصـيلة التـي عـرف بهـا العراقيـون فـي عـدم التعـرض لامـرأة لـيس لهـا رجـل، وقـيم التمسـك بـالحلال ولخـوف مـن اقتـراب أمـوال اليتـامى، وهـو الأمـر الـذي تتضـايق منـه (ميسـاء)، ويجعلهـا تقـارن حالهمـا فـي الحاضـر السردي مع افتراض وجود رجل يدافع عنهما وتجعلهما تشعران بالأمان.

ويلحظ التعامل الواعي للنماذج الروائية مع تمثيل القيم المتحكمة في العلاقات الاجتماعية بين الأطياف الدينية والمذهبية المختلفة في المدن العراقية، خصوصاً بعد أحداث ٢٠٠٣ وارتفاع وتيرة أعمال العنف، إذ أخذت الصراعات منحى دينياً ومذهبياً، بينما كانت في الأساس صراعاً بين الجماعات السياسية على المصالح والوصول إلى السلطة، إذ فشلت النخبة السياسية في تأسيس نظام سياسي عادل يمثل الجميع ويراعي حقوقهم ومصالحهم، ممّا أدى إلى تراكم الأزمات وتعميق الخلافات، وإلاّ فإن البلد يمتلك تاريخاً طويلاً وحافلاً بالنماذج الراقية من التعايش السلمي بين الأديان والمذاهب المختلفة، والعلاقات الاجتماعية الوثيقة بين أتباعها، حيثما كانت السلطة لم تتدخل في شؤون علاقاتهم، وسعت النماذج الروائية المدروسة إلى إبراز التعايش والعلاقات الاجتماعية بين الأطياف المختلفة، وسرد مواقف إيجابية من اتباع الديانات تجاه الآخر المختلف دينياً، ففي رواية (طشاري) تلجأ الشخصية المسيحية (الدكتورة وردية) إلى جارها المسلم(الشيخ داؤود) بعد تلقيها التهديدات من قبل الجماعات المسلحة التي انتشرت بعد عام ٢٠٠٣ واصطبغت بصبغة دينية:

"أخذت رسالة التهديد وتوكأت على عكازها، وذهبت إلى بيت جارهم الشيخ داؤود ووضعتها في يده وهي ساكتة، قرأ الرجل الذي يؤم الصلاة في المسجد القريب الورقة واكفهرّ وجهه، شتم الزعاطيط وأدعياء الدين والطّماعين والمتعصّبين وكلّ الذين يريدون ترويع كرام الناس، وقام وقعد وتحدّث في الهاتف وعاد ليقرأ الرسالة ثانية بصوت عالٍ ويسخر من ركاكتها ويؤشر على الأخطاء النحوية الواردة فيها ووردية تصغي ولا تعلق.

– *دكتورة لا تخافي نحميكم بعيوننا* "[٦٤].

فالشخصية في محنتها تستنجد بجارها المسلم، لما بينهما من علاقات اجتماعية وثيقة، وهو يقف معها، ويعدها بحمايتها، وينفي بصفته الدينية (الشيخ.. يؤم الصلاة) الشرعية الدينية عن تلك الممارسات والقائمين بها، فجارتها المسيحية عنده من (كرام الناس)، وأمّا مخوّفيها فهم من (أدعياء الدين/ الطماعين/ المتعصبين)، وبذلك يأخذ النص على عاتقه التعبير عن العلاقات الاجتماعية الوثيقة بين أتباع الديانات المختلفة في أصعب الفترات الزمنية التي مرّ بها العراق، وإن تسجيل التماسك الاجتماعي والإشادة بموقف المسلمين تجاه تضييق الخناق على المكون المسيحي من قبل روائية مسيحية (إنعام كجةجي) تمثل شهادة ذات قيمة في التعبير عن حقيقة الأوضاع والمواقف في تلك المدة الزمنية المأزومة، وذلك لأن السرد التخييلي يسرب مادته من الواقع الموضوعي، ولا تمانع الدراسات السردية المعاصرة ربط الداخل السردي بخارجه، وهي تنطلق من الاشتغال على التواصل داخل النص على أساس علاقة المرسِل بالمرسَل إليه، ثم علاقة العنصرين بمرجعيتيهما المتمثلتين في المؤلف الحقيقي والقارئ الحقيقي، وارتباط البعدين بالمرجعيات الثقافية والمعرفية[٦٥].

كما تكون العلاقة الاجتماعية الحميمة بين الصديقين (يوسف) المسيحي و(سعدون) المسلم ومشاركتهما في المناسبات الاجتماعية لبعضهم البعض موضع تركيز رواية (يا مريم)، وتتجلى هذه العلاقة في أوضح صورها في ذكرى وفاة (حنة) أخت يوسف:

" سألني سعدون:

– *رايح للكنيسة؟*

– *إي طبعاً.*

– والله لو مو عندي موعد الدكتور چان إجيت وياك، بس عندي فحص الدوري، ما أگدر أأجله.

كان قد حضر قدّاس جنازة ورافق تابوتها إلى المقبرة وساعدني على إنزاله إلى القبر، وجلس في الصف الأول في الكنيسة وقرأ الفاتحة مرتين على روح حنة، ونظر إليه بعض الحضور باستغراب يومها، لم تكن تلك أول مرة يدخل كنيسة في حياته، لأنّه حضر عند وفاة ميخائيل وحبيبة. تهدج صوتي قليلاً:

– تسلم عيوني، آني أشعل لها شمعة بمكانك.

– أي، الله يخليك، والله مثل أختي، الله يرحمها" (٦٦).

فاختلاف الدين لم يكن عائقاً أمام العلاقة الاجتماعية الوثيقة بين الشخصيتين وعائلتيهما، والاحترام المتبادل بينهما، وقبول الآخر باختلافاته، ويأتي الاسترجاع في النص وتعداد مرات زيارة (سعدون) للكنيسة من أجل تأكيد الامتداد الزمني للعلاقة القائمة بينهما، وكونها ليست طارئة أو مؤقتة، كما أن ذِكرَ النص لنمط مشاركة هذه الشخصية في مناسبة وفاة (حنة) يسهم في إبراز عمق العلاقة وصدق المشاركة الشعورية بين الشخصيتين (ساعدني على إنزاله.../ جلس في الصف الأول/ قرأ الفاتحة مرتين)، وهو الأمر الذي يؤدي بـ(يوسف) على طول أحداث الرواية إلى نفي كون الصراع القائم في العراق صراعاً دينياً، وإنما صراع سياسي تحركه مصالح الجهات الخارجية والداخلية.

نتائج الدراسة

١- تبرز روايات عينة الدراسة الأثر السلبي للأحداث التي مر بها العراق من الحروب والحصار والفوضى الأمني في تغيير المنظومة القيمة نحو اختفاء القيم الأصيلة التي عرف بها المجتمع العراقي من الشهامة والإيثار والتآزر وظهور قيم دخيلة تغذيها الأنانية والجشع و.

٢- تدين النماذج الروائية المدروسة منظومة القيم والتقاليد المتخلفة التي ثقلت كاهل المجتمع العراقي، وتلقي الأضواء على أثرها الهدام في المجتمع، وذلك في سياق الوعي بدور الأدب في توجيه مسيرة الحياة الاجتماعية وتصحيح انحرافاتها.

٣- أبرزت النماذج الروائية المدروسة خروج القيم – في أحيان كثيرة -عن مغزاها الاجتماعي المتمثل في تنظيم العلاقات بين الأفراد والجماعات الاجتماعية وتحولها إلى وسيلة لتضييق مساحة الحرية الفردية، في مقابل هيمنة الهوية الجماعية على نمط الحياة، بحيث يبدو الإنسان عضواً في الجماعة أكثر من كونه فرداً له خصوصياته.

٤- تجسد النماذج الروائية المدروسة دور الهجرة من الريف إلى المدينة والسلوكيات السياسية الاستبدادية لأنظمة الحكم في تغيير قيم المدينة نحو تفريغها من السمات الحضرية المتمثلة في تواجد التنوع واللجوء إلى القانون، والاستناد إلى الحل العقلاني للمشاكل، في مقابل بروز لغة السلاح والتهديد وهيمنة القيم العشائرية.

الهوامش:

(١) حميد لحميداني، الرواية المغربية ورؤية الواقع الاجتماعي- دراسة بنيوية تكوينية: ١٢.
(٢) جيسي ماتز، تطور الرواية الحديثة: ٨.
(٣) وليد قصاب، مناهج النقد الأدبي الحديث- رؤية إسلامية: ٣٥-٣٦.
(٤)حميد لحميداني، الرواية المغربية ورؤية الواقع الاجتماعي- دراسة بنيوية تكوينية: ١١.
(٥) جورج لوكاتش، دراسات في الواقعية: ١٣٢.
(٦)رمضان بسطاويسي محمد، علم الجمال عند لوكاتش: ٢٧٦.
(٧) الشريف حبيلة، سوسيولوجيا النص الروائي من النظرية إلى التطبيق: ٩٦.
(٨) لوسيان غولدمان، مقدمات سوسيولوجيا الرواية: ٢١.
(٩) بيار ف. زيما، النص والمجتمع- آفاق علم اجتماع النقد: ١٢- ١٣.
(١٠) الشريف حبيلة، سوسيولوجيا النص الروائي من النظرية إلى التطبيق: ١٣٥.
(١١) السيد الحسيني، المدينة- دراسة في علم الاجتماع الحضري: ١١٧.
(١٢)إيميل دوركايم، في تقسيم العمل الاجتماعي: ١٥١-١٥٣.
(١٣) حليم بركات، المجتمع العربي في القرن العشرين- بحث في تغير الأحوال والعلاقات: ٢١٣.
(١٤) حسين السكاف، كوبنهاغن مثلث الموت: ١٥٢.
(١٥) حليم بركات، المجتمع العربي في القرن العشرين- بحث في تغير الأحوال والعلاقات: ٢٧١.
(١٦) محسن الرملي، تمر الأصابع: ٧-٨.
(١٧) محسن الرملي، تمر الأصابع: ٩٣
(١٨) محسن الرملي، تمر الأصابع: ١٨-١٩.
(١٩) مصطفى حجازي، التخلف الاجتماعي مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور: ١١٤- ١١٥.
(٢٠) محسن الرملي، حدائق الرئيس: ٤٩-٥٠.
(٢١)عبد الله إبراهيم وآخرون، الرواية العربية- ممكنات السرد (أعمال الندوة الرئيسة لمهرجان القرين الثقافي): ١٨٠/٢.
(٢٢) يان مانفريد، علم السرد- مدخل إلى نظرية السرد: ٨٨.
(٢٣) محسن الرملي، حدائق الرئيس: ٧٩.
(٢٤) محسن الرملي، حدائق الرئيس: ١٦٢-١٦٣.
(٢٥) إيميل توفيق، الزمن بين العلم والفلسفة والأدب: ٩٦.
(٢٦) يوري لوتمان، مشكلة المكان الفني، ضمن كتاب جماليات المكان: ٦٠.
(٢٧) مصطفى حجازي، التخلف الاجتماعي- مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور،: ٢٠٣.
(٢٨) زينب الكناني، أقراط ميناء: ٦٥.
(٢٩) إحسان محمد الحسن، العائلة والقرابة والزواج: ٦٢.
(٣٠)حدائق الرئيس، محسن الرملي: ٤٣-٤٤.
(٣١) برهان شاوي، مشرحة بغداد: ١٢.
(٣٢) نوزت شمدين، شظايا فيروز: ٦١-٦٢.
(٣٣)كريم كطافة، حصار العنكبوت: ٧٥.
(٣٤) باقر ياسين، شخصية الفرد العراقي - ثلاث صفات سلبية خطيرة التناقض، التسلط، الدموية: ٤٨-٤٩.
(٣٥) محسن الرملي، تمر الأصابع: ٩٢-٩٣.
(٣٦) محسن الرملي، تمر الأصابع: ١١٥.
(٣٧) أحمد مختار عمر، علم الدلالة: ٧٩.
(٣٨) أنتوني غدنز، علم الاجتماع – مع مدخلات عربية: ٦١١-٦١٢.
(٣٩) السيد الحسيني، المدينة- دراسة في علم الاجتماع الحضري: ١١٧.
(٤٠) إبراهيم الحيدري، الشخصية العراقية- مرحلة ما بعد السقوط وتشوهات الشخصية: ٢٣-٢٤.

(٤١) زهير الهيتي، أيام التراب: ١٤-١٥.
(٤٢) ضياء الدين زاهر، اللغة ومستقبل الهوية: ٩.
(٤٣) محمد حسن عبد الله، الريف في الرواية العربية: ١٥٥-١٥٧.
(٤٤) زهير الهيتي، أيام التراب: ٢٨.
(٤٥) كافين رايلي، الغرب والعالم: ١/ ٨٠-٨١.

(٤٦) ت. س. إليوت، ملاحظات نحو تعريف الثقافة: ١٠.
(٤٧) سعد محمد رحيم، مقتل بائع الكتب: ٥٢.
(٤٨) دنى غالي، منازل الوحشة: ٥٥-٥٦.
(٤٩) مالك بن نبي، ميلاد المجتمع-شبكة العلاقات الاجتماعية : ٤١.
(٥٠) هدية حسين، ريام وكفى: ٧١
(٥١) عبد الستار ناصر، قشور الباذنجان: ٢٣.
(٥٢) حسين السكاف، كوبنهاغن مثلث الموت: ٧٨.
(٥٣) علي بدر، أساتذة الوهم: ٧٢.
(٥٤) مراد عبد الرحمن مبروك، بناء الزمن في الرواية المعاصرة: ١٤٦.
(٥٥) محمد القاضي وآخرون، معجم السرديات: ٣٢٣.
(٥٦) ينظر: علي بدر، أساتذة الوهم: ٩٨-١٠٠.
(٥٧) عبد الستار ناصر، قشور الباذنجان: ١٣٠.
(٥٨) صلاح فضل أساليب السرد في الرواية العربية: ٢٠٤.
(٥٩) أحمد حسين الجار الله، أسلوبية القصة – دراسة في القصة القصيرة العراقية: ٥٥-٥٦.
(٦٠) شاكر الأنباري، أقسى الشهور: ١٥٠.
(٦١) عبد الستار ناصر، قشور الباذنجان: ٥١.
(٦٢)مصطفى حجازي، التخلف الاجتماعي- مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور: ١٩٣.
(٦٣) حديقة حياة، لطفية الدليمي: ١٢٩.
(٦٤) إنعام كجة جي، طشاري: ١٣٠.
(٦٥) يادگار لطيف الشهرزورى، السرديات المعاصرة- من قبل الحداثة إلى بعد ما بعد الحداثة - ثورة الخيال السردي: ٢٥٩.
(٦٦) سنان أنطوان، يا مريم: ٧٨-٧٩.

ثبت المصادر والمراجع

أ- الكتب

- إبراهيم الحيدري، الشخصية العراقية- مرحلة ما بعد السقوط وتشوهات الشخصية، بغداد، دار ومكتبة عدنان للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠١٩.
- إحسان محمد الحسن، العائلة والقرابة والزواج، بيروت، دار الطليعة للطباعة والنشر، ط٢، ٢٠٠١.
- أحمد حسين جار الله، أسلوبية القصة- دراسة في القصة القصيرة العراقية، بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة، ط١، ٢٠١٣.
- أحمد مختار عمر، علم الدلالة، القاهرة، عالم الكتب، ط٥، ١٩٩٨.
- أنتوني غدنز، علم الاجتماع – مع مدخلات عربية، الترجمة: فايز الصُياغ، بيروت، المنظمة العربية للترجمة، ط١، ٢٠٠٥.
- إيميل توفيق، الزمن بين العلم والفلسفة والأدب، بيروت دار الشروق، ط١، ١٩٨٢.
- إيميل دوركايم، في تقسيم العمل الاجتماعي، الترجمة حافظ الجمالي، بيروت، اللجنة اللبنانية لترجمة الروائع، ط١، ١٩٨٢.
- باقر ياسين، شخصية الفرد العراقي - ثلاث صفات سلبية خطيرة - التناقض، التسلط، الدموية، أربيل، دار آراس للطباعة والنشر، ط١، ٢٠١٠.
- بيار ف. زيما، النص والمجتمع، - آفاق علم اجتماع النقد، الترجمة أنطوان أبو زيد. بيروت، المنظمة العربية للترجمة، ط١، ٢١٣.
- ت. س. إليوت، ميلاد المجتمع-شبكة العلاقات الاجتماعية، مالك بن نبي، دمشق، دار الفكر، ط٣، ١٩٨٣.
- جورج لوكاتش، دراسات في الواقعية، الترجمة: د. نايف بلّوز، بيروت، المؤسسات الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط٣، ١٩٨٥.
- جيسي ماتز، تطور الرواية الحديثة، الترجمة: لطفية الدليمي، بغداد، دار المدى، ط١، ٢٠١٦.

- حليم بركات، بيروت، المجتمع العربي في القرن العشرين- بحث في تغير الأحوال والعلاقات، مركز دراسات الوحدة العربية، ط١، ٢٠٠٠.
- حميد لحميداني، الرواية المغربية ورؤية الواقع الاجتماعي- دراسة بنيوية تكوينية، دار البيضاء، دار الثقافة، ط١.
- رمضان بسطاويسي محمد، علم الجمال عند لوكاتش، القاهرة، الهيئة العامة للكتاب، ط١، ١٩٩١
- السيد الحسيني، المدينة- دراسة في علم الاجتماع الحضري، القاهرة، دار المعرف، ط٢، ١٩٨١.
- الشريف حبيلة، سوسيولوجيا النص الروائي من النظرية إلى التطبيق، الجزائر، دار خيال للنشر والترجمة، ٢٠٢١.
- صلاح فضل، أساليب السرد في الرواية العربية، بيروت، دار المدى للثقافة والنشر، ط١، ٢٠٠٣.
- ضياء الدين زاهر، اللغة ومستقبل الهوية، الإسكندرية، مكتبة الإسكندرية، د ط، ٢٠١٧
- عبد الله إبراهيم، السرديات العربية الحديثة، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط١، ٢٠١٣.
- كافين رايلي، الغرب والعالم، الترجمة: عبد الوهاب محمد المسيري، الكويت، عالم المعرفة، دط، ١٩٨٥.
- لوسيان غولدمان، مقدمات سوسيولوجيا الرواية، الترجمة: بدرالدين عرودكي، اللاذقية، دار الحوار للنشر والتوزيع، ط١، د ت.
- محمد القاضي وآخرون، معجم السرديات، تونس، دار محمد علي للنشر- تونس، ط١، ٢٠١٠.
- محمد حسن عبد الله، الريف في الرواية العربية، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ط١، ١٩٨٩.
- مراد عبد الرحمن مبروك، بناء الزمن في الرواية المعاصرة، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط١، ١٩٨٨.
- مصطفى حجازي، التخلف الاجتماعي- مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور، دار البيضاء، المركز الثقافي العربي، ط٩، ٢٠٠٥
- وليد قصاب، مناهج النقد الأدبي الحديث- رؤية إسلامية، دمشق، دار الفكر، ط١، ٢٠٠٧.
- يادگار لطيف الشهرزوري، السرديات المعاصرة- من قبل الحداثة إلى بعد ما بعد الحداثة، دمشق، دار الزمان للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠١٩.
- يان مانفريد، علم السرد- مدخل إلى نظرية السرد، الترجمة: أماني أبو رحمة، دمشق، دار نينوى، ط١، ٢٠١١.
- يوري لوتمان وآخرون، جماليات المكان، دار البيضاء، عيون المقالات، ط٢، ١٩٨٨.

ب- الروايات

- إنعام كجه جي، طشاري، بيروت، دار الجديد، ط٢، ٢٠٠٩.
- برهان شاوي، مشرحة بغداد، بيروت، الدار العربية للعلوم ناشرون، ط١، ٢٠١٢.
- حسين السكاف، كوبنهاغن مثلث الموت، بيروت، العارف للمطبوعات، ط١، ٢٠٠٧.
- دنى غالي، منازل الوحشة، بيروت، دار التنوير للطباعة والنشر، ط١، ٢٠١٣.
- زهير الهيتي، أيام التراب، تونس، دار التنوير للطباعة والنشر، ط١، ٢٠١٦.
- زينب الكناني، أقراط ميناء، إيطاليا- ميلانو، ط١، ٢٠١٧.
- سعد محمد رحيم، مقتل بائع الكتب، بغداد، دار السطور، ط١، ٢٠١٦.
- سنان أنطوان، يا مريم، بيروت، منشورات الجمل، ط١، ٢٠١١.
- شاكر الأنباري، أقسى الشهور، إيطاليا-ميلانو، منشورات المتوسط، ط١، ٢٠١٩.
- عبد الستار ناصر، قشور الباذنجان، بيروت المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط١، ٢٠٠٧.
- علي بدر، أساتذة الوهم، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط١، ٢٠١١.
- كريم كطافة، حصار العنكبوت الإمارات-رأس الخيمة، دار نون للنشر، ط٢، ٢٠١٥.
- لطفية الدليمي، حديقة حياة، دمشق، اتحاد كتاب العرب، ط١، ٢٠٠٣.
- محسن الرملي، تمر الأصابع، الجزائر، منشورات الاختلاف، بيروت، دار العربية للعلوم ناشرون، ط١، ٢٠٠٩.
- محسن الرملي، حدائق الرئيس أبو ظبي، الثقافة للنشر والتوزيع، ط٢، ٢٠١٣.

- نوزت شمدين، شظايا فيروز، عمان، دار فارس للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠١٧.
- هدية حسين، ريام وكفى، دمشق، اتحاد كتاب العرب، ط١، ٢٠١٥.